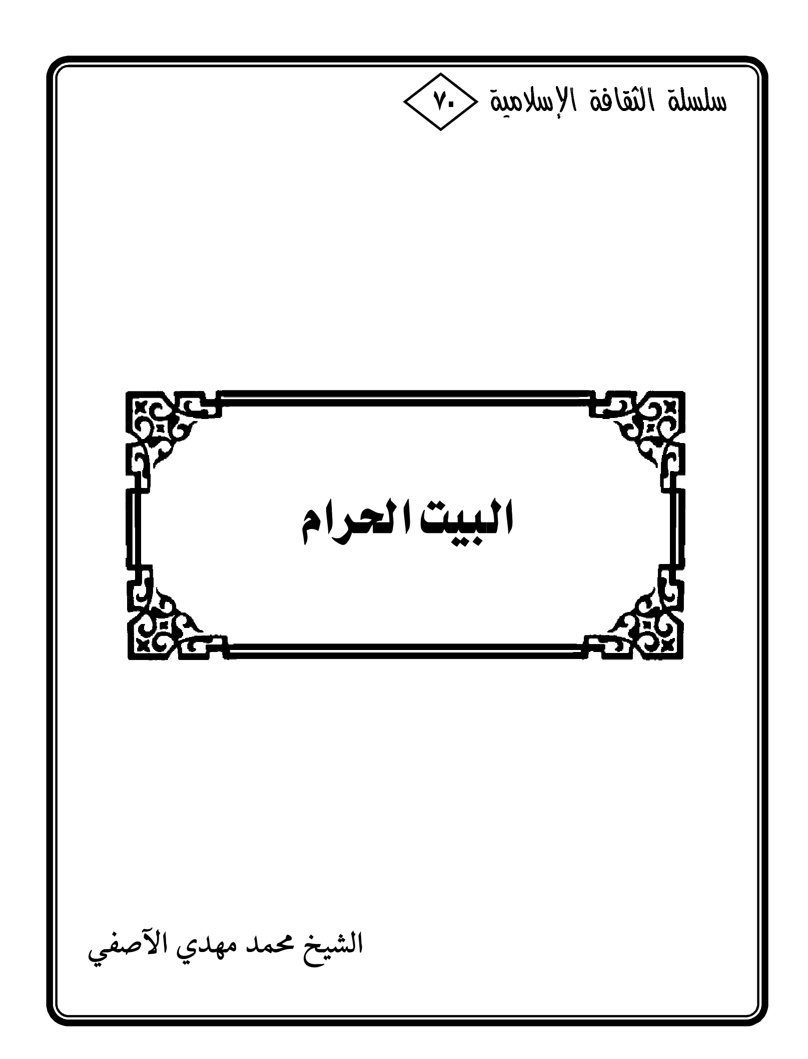


مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

❊ ❊ ❊

مقال نشر في مجلة ميقات الحج، العدد الثامن، نعيد نشره هنا تعميما للفائدة.

اسم الكتاب: .... البيت الحرام
المؤلف:... محمّد مهدي الآصفي
تاريخ الطبع: .... ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م
الكمية... ٣٠٠٠ نسخة
المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف



﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾

المائدة: ٩٧

يطلق «البيت الحرام» في القرآن على الكعبة المشرفة، وتتضمن هذه الكلمة مفردتين:

(**البيت**) و(**الحرام**).

وفيما يلي سأتحدث إن شاء الله عن كل من هاتين الكلمتين، ونبدأ بالحديث عن (البيت).

١. البيت

يكثر في القرآن استعمال (البيت) في الكعبة الشريفة، وفيما يلي نذكر طائفة من آيات كتاب الله، التي أطلقت كلمة (البيت) على (الكعبة):

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[١].

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[٢].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً﴾[٣].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[٤].

﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[٥].

مقوّمات البيت:

ولا بد من أن نقف وقفة تأمل قصيرة عند هذه الكلمة.

١ ـ البقرة: ١٢٧.
٢ ـ البقرة: ١٥٨.
٣ ـ البقرة: ١٢٥.
٤ ـ آل عمران: ٩٦.
٥ ـ آل عمران: ٩٧.

إن للبيت مقومات أربعة:

١ ـ فالبيت يجمع شمل الأسرة الواحدة من نسيج حضاري واحد.

٢ ـ وفي البيت يجد الإنسان (سكوناً) واستقراراً لا يجده في غيره، وفي أي مكان آخر على وجه الأرض. يقول تعالى: ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾[١].

و(السكن) هو ما يطمئن إليه الإنسان، ويجد فيه استقراره النفسي، ويركن إليه.

وقد عَدَّ الله تعالى (الصلاة) و(الليل) و(الدار) الّتي يؤوي إليها الناس سكناً.

يقول تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[٢].

فالإنسان يسكن إلى الصلاة والدعاء واللجوء إلى الله تعالى، ويجد في كلّ ذلك سكناً، تطمئن به نفسه وقلبه ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٣] وطمأنينة القلوب، وسكون النفس من مقولة واحدة.

١ ـ النحل: ٨٠.
٢ ـ التوبة: ١٠٣.
٣ ـ الرعد: ٢٨.

والليل هو الآخر، يسكن إليه الإنسان، ويجد فيه راحة من زحمة النهار ومتاعبه، يقول تعالى: ﴿**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا**﴾[1].

والدار التي يسكنها الإنسان هي الأخرى سكن وقرار له. يقول تعالى: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا**﴾[2].

٣ ـ إضافةً الى ما يتذوقه الإنسان في البيت من (السكن والاستقرار النفسي)... يجد في البيت (الأمان) أيضاً، فإنَّ للبيت في المجتمعات البشريّة حرمة وأماناً، وقد يخترق الظالمون هذه الحرمة ويدخلون الرعب الى (البيوت)، ولكن يبقى الأصل في (البيت) الحرمة والأمان، وليس لأحد الحقُّ أن يخترق هذه الحرمة والأمان إلا بموجب القانون الذي يحمي حرمة المجتمع وأمن المجتمع؛ وحرَّم القرآن على الذين آمنوا أن يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم إلا بعد الاستيناس والسلام والإذن من أصحابها.، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلهَا ذَلكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإن لَّمْ تَجدُوا فيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإن قيلَ لَكُمُ ارْجعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بمَا تَعْمَلُونَ عَليمٌ**﴾[3].

---

١ ـ الانعام: ٩٦.

٢ ـ النحل: ٨٠.

٣ ـ النور: ٢٧ ـ ٢٨.

(البيت) والانتماء الحضاري:

يعيش الناس على وجه الأرض على حالتين حالة الانتماء الحضاري وحالة اللاّانتماء، والحالة الأولى هي: حالة الحياة البيتيّة، والحالة الثانية هي: الحالة اللاّبيتيّة.

وحالة (البيت) هي حالة الانتماء والتآلف والتعاون، وفي هذا النمط من الحياة يُحسّ الإنسان بالعلاقة العضوية بالمجتمع الذي يحتضنه ويؤديه، ويتذوق التآلف والتعارف في الحياة الاجتماعية، وهذه الحالة هي حالة الإنسان الذي ينتمي الى البيت.

والحالة الأخرى هي حالة اللاّانتماء، وهي حالة لاحضارية يفقد فيها الإنسان الإحساس بالعلاقة العضويّة بالمجتمع الذي يعيش فيه، ويفقد فيها الإحساس بالتآلف والتعارف، ويسيطر عليه شعور غريب بـ(الغربة)، وهذه الحالة هي حالة الإنسان الذي لا ينتمي الى بيت.

ومن يقرأ الرواية القصصية (الغريب) لأحد الكتاب الوجوديين المعروفين... يشعر بصورة دقيقة بعمق الشعور بالغربة في نفس الإنسان المعاصر، وهذه هي حالة عدم الانتماء الى بيت يجمع شمل المجتمع.

إذن في حياة الناس حالتان: حالة البيت، وحالة اللاّبيت.

وحالة البيت ليست حالة واحدة، بل حالتين: بيت التوحيد وبيت الشرك، ونتحدث الآن عن هذين البيتين في حياة الناس.

بيت التوحيد وبيت الشرك:

يعبّر كل من هذين البيتين عن حالة الإنتماء الحضارية في حياة الإنسان، غير أن البيت الأوّل انتماء الى أسرة التوحيد، والبيت الثاني انتماء الى أسرة الشرك، وكل منهما انتماء، ولا يصح أن نتصور أن حالة الشرك والكفر لا تعبر عن الإنتماء غير أن الانتماء انتماءان.

وكل من هذين الانتماءين يتألّف من نسيج حضاري تحكمه شبكة من العلاقات العضوية. والقرآن يقرر هذه الحقيقة في كل من هذين البيتين، يقول تعالى عن العلاقة العضوية داخل البيت الأول: ﴿وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[1] الذين آووا ونصروا في التاريخ، وعلى وجه الأرض أسرة واحدة، أينما كانوا من الأرض، ومن التاريخ... بعضهم أولياء بعض، ولا تُضعف وشيجة الولاء هذه فواصل المكان والزمان ولا اختلاف اللغات والألوان والدماء.

ولوشيجة (الولاء) أصولها وأحكامها ومقوماتها. وهذه الوشيجة هي التي تحفظ أُسرة التوحيد من التفكّك والتفرق والتمزق، والعقم والعطل في التاريخ، إلاّ أن هذه العلاقة العضوية لا تخصّ أسرة التوحيد... فإن الذين كفروا، في أنحاء الأرض وفي التاريخ أيضاً،

١ ـ المائدة: ٥١.

أسرة واحدة، على وجه الأرض، في مواجهة أسرة التوحيد، رغم كل الخلاف الثقافي والسياسي والعسكري فيما بينهم، وداخل هذه الأُسرة ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[1]، ولا أعرف تعبيراً أدق في تصوير حالة الانتماء والعلاقة العضوية داخل هذه الأسرة من قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ فهي مجتمعة «بعضها من بعض» وفي داخل هذه الأسرة الكبيرة أُسرٌ صغيرة أيضاً «بعضها من بعض» على درجات مختلفة من القوة والضعف، ولكن تبقى القاعدة الثابتة في كلّ الحالات، وفي المجتمعات الصغيرة والمجتمع الكبير أنها بعضها من بعض.

وليس معنى ذلك أن الأسرة الكافرة تابعة لمحور ولاء واحد، فهي قد تكون ولاءات متعددة، وصدق الله تعالى في التعبير عن هذه الحقيقة ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾[2] فالذين كفروا لهم ولاءات عديدة، إلا أنهم لهم براءة واحدة، لا يختلفون فيها وهي البراءة من الذين آمنوا.

يقول تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ

١ ـ التوبة: ٦٧.
٢ ـ البقرة: ٢٥٧.

الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] ويقول تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾[2] وهذه البراءة الواحدة تجعلهم صفاً واحداً كتلة واحدة، كلما اقتضى الأمر، في مواجهة الأمّة المسلمة، وتكسبهم بذلك حالة الولاء الواحدة، فتكون عندئذ كما قال ربنا: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾.

فالذين كفروا، إذن رغم كلّ الصراع والخلاف المنتشر بينهم أمة واحدة، وأسرة واحدة، وكتلة واحدة في مواجهة الذين آمنوا، ولنقرأ بيان هذه الحقيقة الخطيرة من كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[3]. وفي سورة الأنفال: ﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾.

بيتان إذن هناك في التاريخ، وعلى وجه الأرض (بيتان) و(أسرتان) و(جبهتان) و(انتماءان) انتماء الى الله ورسوله وإلى الذين آمنوا، وهذا هو الانتماء الأول. وانتماء الى الذين كفروا،

---

١ ـ البقرة: ١٠٥.

٢ ـ البقرة: ٢١٧.

٣ ـ المائدة: ٥١.

وهذا هو الانتماء الثاني. وكل منهما (بيت)، تحكمه علاقات البيت الواحد، من حيث الولاء والبراءة.

أيّ البيتين أقدم؟

إذا عرفنا أن هناك بيتين في التاريخ، وعلى وجه الأرض، فإنَّ من الطبيعي أن نتساءل أيّ البيتين أسبق وأقدم في التاريخ... بيت التوحيد أم بيت الشرك؟

الذي يقرره القرآن: أن الناس كل الناس كانوا على هدى التوحيد بالفطرة، ثم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله تعالى فيهم النبيين والمرسلين مبشرين ومنذرين.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[2].

إذن البيت الأول في التاريخ هو (بيت التوحيد)، ولما اختلف الناس وانشقّوا عن التوحيد أقاموا لأنفسهم بيتاً جديداً، بدلا عن البيت الذي أقامه الله تعالى لهم.

---

١ ـ يونس: ١٩.

٢ ـ البقرة: ٢١٣.

فكان هذا البيت الثاني متأخّراً عن البيت الأول، وانشقاقاً على البيت الأول، وخروجاً على أصوله وقيمه وأحكامه.

الصراع بين البيتين:

ومنذ أن انشقَّ البيت الثاني عن البيت الأول استقر بينهما الصراع الى اليوم، ولا يزال الصراع قائماً بينهما، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.

والصراع بين هذين البيتين من حتميات التاريخ، ورغم كل شراسَة الشرك في ضرب قلاع التوحيد، فإن بيت التوحيد بيت مقاوم وصعب، وبيت الشرك بيت موهون وضعيف كبيت العنكبوت، يتخذه العنكبوت ليكون لها وقاية وأمناً، فتمزقه الرياح وتبدده ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

الكعبة بيت الموحدين:

وقرّر الله تعالى أن تكون الكعبة المشرفة بيتاً للموحدين، يجمع شملهم من نقاط شتى من الأرض، ويوحدّ جهة حركتهم على

---

١ ـ العنكبوت: ٤١.

امتداد التأريخ، ويؤلف بين قلوبهم، ويوحدها، برغم الفواصل المكانية والزمانية الكثيرة، ويؤلف بين قلوبهم، ويُعرّف بينهم.

والمعمار الأول لهذا البيت هو إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل:

﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**﴾[1].

وأولياء هذا البيت هم المتقون.

﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ**﴾[2].

وهذا فارق جوهري بين أولياء هذا البيت، وأولياء بيوت الشرك، فإن أولياء هذا البيت المتقون دائماً.

وأما غير هذا البيت من بيوت الشرك والكفر فلا يتولاه إلا الجبابرة والطغاة، والصادّون عن سبيل الله.

وأما بيت الله فالمتقون وحدهم هم الذين يحق لهم أن يتولوا أمر هذا البيت، دون الجبابرة والطغاة، وأما روّاد هذا البيت، فهم بعكس روّاد البيوت الأخرى، هم الطائفون والعاكفون والركع السجود.

﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ**

---

١ ـ البقرة: ١٢٧.

٢ ـ الأنفال: ٣٤.

﴿وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1].

وهذا هو الفارق الجوهري الآخر بين هذا البيت والبيوت التي يقيمها الكافرون لأنفسهم في الأرض.

فإن هذا البيت رواده الطائفون، العاكفون، الركع السجود، المسبحون، الذاكرون، بينما يرتاد البيوت التي يقيمها الكافرون وأهل البطر وأهل الرياء من الناس، ومن لا يطلب في عمله وحركته وجه الله.

الكعبة البيت الأول على وجه الأرض:

والكعبة، بصراحة القرآن، أول بيت وضع للناس، يقول تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

كان لابد لبيت التوحيد في التاريخ، وعلى وجه الأرض، من موضع يجمع شملهم، ويوحّد جهة حركتهم، ويقرّب، ويعرّف، ويؤلف بينهم، فأمَر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة

١ ـ البقرة: ١٢٥.

٢ ـ آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

المشرفة؛ ليتخذه الناس بيتاً لهم، وليكون لهم سكناً، وأمناً، ومحلا يجمع شملهم.

وهو أول بيت للناس، وبعد ذلك عمّر أولياء الله بيوتاً كثيرة للناس على وجه الأرض.

وأما البيوت التي أقامها المشركون للبطر والرياء فلم تكن لخدمة الناس وتوجيههم إلى الله، وإنما كانت لتضليل الناس، واستعبادهم، وصدّهم عن سبيل الله، ولم تكن بأمر الله، وإنما كانت بإغراء وإغواء من الشيطان، لدعوة الناس الى الانشقاق على التمرد على حدود الله، وليأوي إليه المنشقون على حدود الله وأحكامه.

الكعبة (بيت الله) و(بيت الناس):

الكعبة، بصراحة القرآن (بيت الله) وفي نفس الوقت (بيت الناس) أيضاً؛ بيت الله، لأن الله تعالى أمر خليله وابن خليله بإقامته، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يدعو الناس إليه للحجّ، وشَدَّ أفئدة الناس إليه، وأمر خليله إبراهيم عليه السلام وابنه بتطهيره وإعداده للطائفين والقائمين والراكعين والساجدين، ونسبه الى نفسه، كما نسبه إبراهيم عليه السلام إليه تعالى فهو بيت لله.

وهو بيت للناس لأن الله تعالى اتخذه بيتاً لهم، يأوون إليه ويتآلفون، ويتعارفون في رحابه، فهو بيت للناس.

وسوف نقدم إن شاء الله توضيحاً لهاتين النسبتين للكعبة الشريفة فيما يلي:

بيت الله:

الكعبة (بيت الله) بصريح القرآن نسبه الله تعالى الى نفسه، ونسبه إليه تعالى عبده وخليله إبراهيم، وأنبياؤه عليهم السلام.

يقول تعالى لعبديه وخليليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

وينسب إبراهيم عليه السلام البيت الى الله، فيقول كما يحدثنا القرآن: **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾**[1] والله تعالى بَوَّأ لإبراهيم عليه السلام مكان البيت من الأرض يقول تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ والله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يطهر البيت ويُعدّه للطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود من عباده **﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**[2].

---

١ ـ إبراهيم: ٣٧.

٢ ـ الحج: ٢٦.

وأمر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم أن يعلن في الناس حجّ هذا البيت، ويدعو الناس إليه.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ والله تعالى جذب أفئدة الناس من كلّ فجّ عميق إلى هذا البيت، والى الاستجابة لأذان إبراهيم عليه السلام **﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾**[1].

منزلة الكعبة عند الله:

وهذا البيت أحبّ بقاع الأرض الى الله تعالى.

روى الصدوق في الفقيه، عن سعيد بن الأعرج، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «أحبّ الأرض الى الله تعالى مكة، وما تربة أحبّ الى الله عزّوجلّ من تربتها، ولا حجر أحبّ الى الله من حجرها، ولا شجر أحبّ الى الله من شجرها، ولا جبال أحبّ الى الله من جبالها»[2].

وروى الكليني عن ابن أبي عمير عن زرارة، قال: «كنت قاعداً إلى جنب أبي جعفر عليه السلام، وهو محتجب مستقبل الكعبة، فقال: أما إن النظر اليها عبادة.

---

١ ـ الحج: ٢٧.

٢ ـ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٦٢.

فجاءه رجل، من بجيلة يقال له: عاصم بن عمر، فقال لأبي جعفر عليه السلام: إن كعب الأحبار كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة.

فقال أبو جعفر عليه السلام: فما تقول فيما قال كعب الأحبار؟ فقال: صدق. القول ما قال كعب.

فقال أبو جعفر عليه السلام: كذبت وكذب كعب الأحبار معك، وغضب.

قال زرارة: ما رايته استقبل أحداً يقول: كذبت، غيره.

قال عليه السلام: ما خلق الله عزّوجلّ بقعة في الأرض أحبّ إليه منها. ثم أومأ بيده نحو الكعبة، ولا أكرم على الله عزّوجلّ منها، لها حرّم الله عزّوجلّ الأشهر الحرم في كتابه، يوم خلق السماوات والأرض ثلاثة متوالية للحجّ: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، وشهر مفرد للعمرة، رجب»[1].

وقد تظافرت الروايات: أن النظر الى الكعبة عبادة.

روى حريز عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال:

«النظر الى الكعبة عبادة، والنظر الى الوالدين عبادة، والنظر الى الإمام عبادة. وقال: مَن نظر الى الكعبة كتبت له حسنة، ومحيت عنه

---

١ ـ الكافي، الفروع ١: ٢٣١، وسائل الشيعة ٩: ٣٦٣.

عشر سيئات»[1].

وعن سيف التمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من نظر الى الكعبة لم يزل تكتب له حسنة، وتمحى عنه سيئة حتى ينصرف ببصره عنها»[2].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «من أيسر ما يعطي من ينظر الى الكعبة أن يعطيه الله بكل نظرة حسنة، وتمحى عنه سيئة وترفع له درجة»[3].

بيت الناس:

والكعبة بيت الناس، جعله الله للناس بيتاً، يَأوون ويثوبون إليه، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا**﴾[4].

فما هي علاقة هذا البيت بالناس، بعد علاقته بالله تعالى؟

من قراءة كتاب الله نتعرف على وجوه لهذه العلاقة.

فهو مسجد للناس، ومثابة للناس، وقوام معايش الناس، ومصالحهم في الدنيا، ومنازلهم ومواقعهم من الله في الآخرة.

---

١ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٦٤.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المحاسن للبرقي ٦٩.

٤ ـ آل عمران: ٩٦.

واليكم إيضاحاً لهذه الأنحاء الثلاثة من علاقة البيت بالناس من خلال كتاب الله.

١ ـ الكعبة مسجد للناس، وفي رحابها يجتمع الطائفون، العاكفون، القائمون، الراكعون، الساجدون، المسبحون، الذاكرون الله كثيراً؛ ليذكروا الله كثيراً، ويسبحوه، ويطوفوا له، ويعكفوا في بيته.

يقول تعالى: ﴿**وَاتَّخِذُواْ من مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾[1].

ويقول تعالى:

﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾[2].

ويُسْكن إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام ذريته عند البيت الحرام؛ ليقيموا فيه لله الصلاة.

﴿**رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ**﴾[3].

---

١ ـ البقرة: ١٢٥.
٢ ـ الحج: ٢٦.
٣ ـ إبراهيم: ٣٢.

إذن، فقد وضع الله تعالى هذا البيت للناس؛ ليتخذوه مسجداً، ومصلى ومطافاً، ومقاماً بين يديه تعالى... ومن هذا البيت ينطلق الناس الى الله، وفي هذا البيت أمر الله تعالى عباده أن يعبدوه، ويوحدوه، ويسبحوه ويذكروه كثيراً.

٢ ـ والكعبة مثابة للناس يثوبون إليها، فيجتمع بعضهم ببعض، والخلف بالسلف، والإنسان بنفسه، يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً**﴾ ومن طبيعة الحياة الدنيا أنها تشتت، وتقطع وتغيب.

تشتت الناس بعضهم عن بعض.

وتقطع الناس عن أصولهم.

وتُغيب الإنسان عن نفسه.

وهذا التشتيت والتقطيع والتغييب، يَضُرُّ الإنسان، ويفسده ويغرّبه (يشعره بالغربَة)، ويحجبه عن أصول شمله، فلابد للإنسان من محل يثوب إليه، يجمع شملهم بعضهم ببعض، ويصل الإنسان بأصوله، ويعيد الإنسان الى نفسه.

والكعبة هي هذه المثابة التي جعلها الله تعالى للناس، فهي تجمع الناس كل سنة مرة منذ أن أذن إبراهيم عليه السلام في الناس بالحج إلى اليوم ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ**

يَأْتينَ من كُلِّ فَجٍّ عَميق﴾[1].

ويجمع الناس في كل يوم خمس مرات من شتى مناطق الأرض، يستقبلونها في صلواتهم، يقول تعالى: **﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**[2].

فيجد المسلمون الموحدون، الذين اسلموا وجوههم لله على ملة إبراهيم في الكعبة مثابة لهم، تجمعهم كلما تشتتوا، وتوحّد حركتهم كلما تفرقت بهم المذاهب والمسالك في الحياة الدنيا.

وتصل الخلف بالسلف، كلما قطعت الحياة الدنيا هذه الأواصر التي تربط الأبناء بالآباء، فيعيدهم البيت الحرام إلى آبائهم وأصولهم إبراهيم وإسماعيل، ويأمرهم الله تعالى أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى **﴿وَاتَّخِذُواْ من مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾**.

فيذكّرهم (المقام) بإبراهيم، و(الحجر وزمزم) بإسماعيل و(الصفا والمروة) بهاجر.

وإذا عاد الناس الذين أسلموا لله حنفاء، بعضهم الى بعض، وعادوا الى أُصولهم وأسلافهم... عادوا الى أنفسهم، ولم يضيعوا

١ـ الحج: ٢٧.

٢ ـ البقرة: ١٤٤.

في زحمة الحياة.

فالكعبة تشعر هذه الأمة بعرضها العريض على وجه الأرض، وعمقها في التأريخ.

إن المسلم الذي يحضر ضمن هذا الحشد الهائل من حجاج بيت الله الحرام... يلمس في الحج حجمه وعمقه ونفسه، فيلمس حجمه الحقيقي في الحشد الهائل الذي يقصد الحج من مختلف مناطق الأرض، ويلمس في الحج عمقه الحقيقي، عندما تذكره الكعبة وأجواؤها بجذوره التأريخية الضاربة في أعماق التاريخ، ويشعره الحج بأنه فرع من الشجرة الطيبة، فيجد نفسه عند الكعبة عندما يتعرف على أصوله وأسرته وبيته.

وهذا هو البعد الأول من هذه المعرفة وهو بعد «الولاء». والبعد الثاني هو بعد «البراءة»، فإن البيت الحرام كما يصل الإنسان بالله تعالى وبأصوله وجذوره الممتدة في التأريخ وبأسرة التوحيد الكبيرة على وجه الأرض، كذلك يقطعه عن المشركين ويفصل بينه وبين أسرة الكفر والشرك على وجه الأرض وفي التأريخ.

ففي رحاب الكعبة إذن يثوب الناس الى أُصولهم، وأسرتهم، وبيتهم، ويتميزون، وينفصلون عن المشركين والكفار.

يقول تعالى: **﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِه إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ**

الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[1].

٣ ـ والكعبة تؤمّن معيشة الناس، وتقوّم معايشهم في دنياهم، كما تقوم آخرتهم.

وهذه الحقيقة يذكرها الله تعالى لعبده وخليله إبراهيم عليه السلام عندما أمره أن يؤذّن في الناس بالحج.

﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ**﴾[2].

كما أن هذه القضية وردت في دعاء إبراهيم عليه السلام، عندما أودع أهله وذريته واد غير ذي زرع عند البيت المحرم ليقيموا الصلاة.

فقد دعا الله تعالى أن يجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم ويرزقهم من الثمرات.

﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾[3].

وقد استجاب الله دعاء عبده وخليله إبراهيم عليه السلام.

١ ـ التوبة: ٣.
٢ ـ الحج: ٢٧ ـ ٢٨.
٣ ـ إبراهيم: ٣٧.

الكعبة قيام للناس:

فالكعبة إذن قضية كُبرى وأساسيه في حياة الناس، لا يستغني عنها الناس في دنياهم، ولا في آخرتهم، ولا يستغنون عنها في سلم أو في حرب، ولا في ولاء من يجب ولاؤه، ولا في البراءة عمن تجب البراءة عنه.

فهي إذن قوام حياة الناس، يقول تعالى: ﴿**جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ**﴾[1].

و«القيام» هو ما يقوم حياة الناس.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه المال، وقال عنه: إنه قيام للناس، قال تعالى:

﴿**وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً**﴾[2].

والكعبة، قيام للناس، يُقَوِّم حياة الناس ومعايشهم في الدنيا، كما تقوم آخرتهم، فيَستقيم بها دينهم ودنياهم وآخرتهم.

وقد روي: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»[3].

فإن الكعبة تقوم دين الناس ودنياهم، وتدفع عنهم العذاب الذي

١ ـ المائدة: ٩٧.
٢ ـ النساء: ٥.
٣ ـ وسائل الشيعة ٨: ١٤.

يستحقه الناس بأعمالهم.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

«لو ترك الناس الحجّ أنزل عليهم العذاب»[١].

وعن عبد الرحمن بن أبي عبد الله، قال:

قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إن ناساً من هؤلاء القصاص يقولون: إذا حج الرجل حجة ثم تصدّق ووصل كان خيراً له، فقال:

كذبوا، لو فعل هذا الناس، لعُطِّل هذا البيت. إن الله عزّوجلّ جعل هذا البيت قياماً للناس»[٢].

الكعبة مباركة:

جعل الله الكعبة مباركة في الحياة، تستنزل رحمة الله تعالى وبركاته على الناس.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾[٣].

فهي من منازل رحمة الله على الناس.

روى معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

١ ـ وسائل الشيعة ٨: ١٣.

٢ ـ وسائل الشيعة ٨: ١٤.

٣ ـ آل عمران: ٩٦.

«إن الله تبارك وتعالى جعل حول الكعبة عشرين ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»[١].

وعن الحسن بن راشد عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال أميرالمؤمنين عليه السلام: إذا خرجتم حجاجاً الى بيت الله، فأكثروا النظر الى بيت الله، فإن لله مائة وعشرين رحمة عند بيته الحرام: ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»[٢].

هذا إجمال من رسالة الكعبة ودورها في حياة الناس، فهي تشدّهم بالله تعالى وبأوليائه، وتشدّهم بأسرة التوحيد على وجه الأرض، وفي التاريخ، وتجمع شملهم، وتوحد حركتهم، وتعرّف بينهم، وتؤلف بين قلوبهم، وتعيدهم الى أنفسهم، وتقوم لهم معايشهم في دنياهم، ومنازلهم من الله في آخرتهم.

١ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٦٣.

٢ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٦٥.

٢.الحرام:

الحرام والحرمة بمعنى الحظر والمنع.

يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾[١].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٢].

وتأتي كلمة الُمحرّم بنفس المعنى، يقول تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾[٣].

كما أن «الحَرَم» وهو المنطقة المحيطة بالبيت الحرام منطقة حظر ومنع، ويطلق عليه الحرم بهذا الاعتبار.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٤].

والشهر الحرام هو كذلك شهر حظر فيه الله تعالى القتال.

١ ـ النحل: ١١٦.
٢ ـ يونس: ٥٩.
٣ ـ الأنعام: ١٤٥.
٤ ـ القصص: ٥٧.

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ﴾[١].

يقول الراغب في (المفردات):

و(الحَرَم) سمي بذلك لتحريم الله تعالى فيه كثيراً مما ليس بمُحرم في غيره من المواضع، وكذلك (الشهر الحرام)[٢].

والعلاقة بين (ما يحرمه الله تعالى) وبين (من يُحَرَّم عليه) و(ما يُحَرَّم فيه) علاقة عكسية.

وتوضيح ذلك:

إن ما يحرّمه الله تعالى من قول وفعل فلا بد من أن يكون ذلك لسبب فيه من فساد أو دناءة كالشرك والفحشاء، وقول الزور والباطل والعدوان، أو أن الله تعالى يكرهه لعباده، ولو لظرف خاص من مكان أو زمان.

وأما من يحرم الحرام عليه، ويضع الله تعالى عليه الحرمة والنهي فإن ذلك إشعار بقيمته ومنزلته عند الله، ومهما كثرت عليه المحرمات عند الله كان ذلك دليلا على منزلته وقيمته.

فليس على الحيوان تكليف من حرام وحلال، وليس على

١ ـ البقرة: ٢١٧.
٢ ـ مفردات الراغب حرف الحاء: ١١٥.

المجنون والطفل تكليف، فالتكليف بالحرمة إشعار بقيمة المكلف عند الله، كما أن كثرة الحرمات في مكان أو زمان إشعار بقيمة ذلك المكان والزمان عند الله.

فإذا كان يحرم في المسجد ما لا يحرم في غيره، كالإجناب ودخول الجنب، مثلا، وتتأكد فيه حرمة اللهو واللغو الباطلين فإن ذلك إشعار بأن قيمة المسجد أعظم عند الله من قيمة غيره من الأماكن.

وإذا كان يحرم في الأشهر الحرم ما لا يحرم في غيرها، أو تتأكد فيها الحرمة، دون غيرها من الأشهر... فذلك لأهمية هذه الأشهر ومنزلتها عند الله تعالى.

وبنفس الميزان نقول: إن اعتبار الكعبة الشريفة والمسجد الحرام، ومنطقة الحرم منطقة حظر ومنع، يكثر فيها الحظر والمنع من عند الله على الناس، ويحظر الله تعالى فيها على الناس ما لا يحظر في غيره... لأهمية هذه البقعة المباركة والمنطقة من الأرض.

ولذلك وصف الله تعالى الكعبة بالحرام، فقال تعالى: ﴿**جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ**﴾ ووصف الله المنطقة بالحرم فقال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا**﴾ ووصف الله تعالى المسجد

بالحرام فقال تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾[1].

ومن هذا التفصيل نريد أن نخلص الى النتيجة التالية: كل ما يحرمه الله تعالى على عباده فهو سبحانه وتعالى راغب عنه كاره له، وإذا حرم الله تعالى على عباده المحرمات فهو إشعار بحبه لهم، ورغبته فيهم، ومهما أكثر الله تعالى المحرمات على عباده كان ذلك إشعاراً لحبه لهم، ورغبته فيهم، وتنزيهه لهم عنها، وكذلك المكان والزمان.

فمهما أكثر الله تعالى من المنع والحظر والحرمة على مكان أو زمان كـ (الحرم) و(المسجد الحرام) و(الأشهر الحرم) و(شهر رمضان) كان ذلك إشعاراً بقيمة متميزة لذلك المكان عند الله تعالى.

والآن، بعد هذا التوضيح لـ (الحرام) نتحدث عن المحرمات، التي حرمها الله تعالى على الناس في (البيت الحرام) وحُرُمات هذا البيت.

حُرُمات البيت الحرام:

١ ـ البدء بالقتال: حرم الله تعالى على المسلمين أن يبدءوا الكفار

١ ـ البقرة: ١٤٤.

بالقتال عند المسجد الحرام، إلا أن يبدأ الكفار قتال المسلمين عنده، فيجوز عندئذ قتالهم وصدهم عن العدوان، يقول تعالى:

﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1].

فينهى الله تعالى المسلمين من قتال الكفار عند المسجد الحرام، إلا أن يكون الكفّار هم البادئون بالقتال.

ثم يقول تعالى عن القتال في الحرم عند المسجد الحرام، وفي الأشهر الحرم: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[2].

فأجاز الله تعالى للمسلمين أن يقتصّوا من المشركين إذا قاتلوهم في الأشهر الحرم، أو عند المسجد الحرام، وأجاز للمسلمين أن يقاتلوهم كما يقاتلهم المشركون فيه ويعاملوهم بالمثل.

والحرمات التي تشير إليها الآية الكريمة بقوله تعالى:

١ ـ البقرة: ١٩١ ـ ١٩٢.

٢ ـ البقرة: ١٩٤.

﴿**وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾ هي حرمة «الشهر الحرام» وحرمة «المسجد الحرام» وحرمة «الحرم».

فإذا تجاوز المشركون على هذه الحرمات، وقاتلوا المسلمين فيها جاز للمسلمين معاملتهم بالمثل.

عن ابن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، قال: «قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: إن الله حَرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وهي حرام الى أن تقوم الساعة، لم تحلَّ لأحد قبلي، ولا يَحلَّ لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار»[1].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث فتح مكة: «إن النبي ﷺ قال: ألا إن مكة محرمة بتحريم الله، لم تحل لأحد كان قبلي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار الى أن تقوم الساعة، لا يختلى خلاها، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد»[2].

٢ ـ حرمة تلويث الكعبة بالشرك، وحرمة الإبقاء على مظاهر الشرك وآثاره حول الكعبة، ووجوب تطهرها منه. والشرك حرام على كل حال وفي أي مكان، ويجب تَطَهُّر الأرض منه في كل

١ ـ وسائل الشيعة ٩: ٦٨.

٢ ـ وسائل الشيعة ٩: ٦٩.

مكان، ولكن هذه الحرمة، وهذا الوجوب في الحرم أعظم وأبلغ وآكد.

فإن الشرك بالله العظيم رجس يلوث كل شيء يصيبه، ويفقده دوره ويسلبه خصائصه ويعطّله.

والإنسان خليفة الله، وليس في الكون كله صفة أشرف من هذه الصفة، وليس لشيء دور أعظم من هذا الدور (خلافة الله)، ومع ذلك فإذا أشرك الإنسان فَقَدَ كُلَّ خصائصه وكرامته، وسقط مرة واحدة، كما لو أنه خرَّ من السماء دفعة واحدة **﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾**[1].

ويُحوِّل الشرك الإنسان من محور خلافة الله الى محور الصدود والإعراض عن الله، وكذلك الكعبة المشرفة إذا أصابتها لوثة الشرك أفقدتها خصائصها وبركاتها، ودورها الكبير والمبارك في حياة الناس.

ولكي يتم تفعيل دور الكعبة في حياة الناس، وتعدّ الكعبة الشريفة، لتكون منطلقاً لعروج الإنسان إلى الله تعالى، لابد من تطهير الكعبة من الشرك، يقول تعالى: **﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ**

١ ـ الحج: ٣١.

الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1].

فلا يعرج الناس الى الله من الطواف حول البيت والقيام والركوع والسجود بين يدي الله في رحاب البيت الحرام، إن لم يطهر الناس الكعبة من رجس الشرك.

وقد عهد الله تعالى بذلك الى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

يقول تعالى:

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2].

٣ ـ حرمة إدخال المشركين الى المسجد الحرام، ووجوب إقصائهم عنه. يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[3].

٤ ـ تحريم قطع الحشيش والشجر من الحرم للمُحل والمحرم.

هكذا عنون صاحب الوسائل هذا العنوان.

١ ـ الحج: ٢٦.

٢ ـ البقرة: ١٢٥، تفسير التطهير في هذه الآية المباركة بتنظيف البيت من القمامة والنجاسات المادية لا يناسب الاهتمام البليغ الذي يعطيه الله تعالى لهذا الأمر، فيعهد الى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والله اعلم.

٣ ـ التوبة: ٢٨.

وروى عن حريز عن أبي عبد الله الصادق عليه‌السلام بسند معتبر قال: «كل شيء ينبت في الحرم فهو حرام على الناس أجمعين»[1].

٥ ـ يحرم الصيد في الحرم وتنفيره مطلقاً للمحرم والمحل.

وروى الكليني عن جريز عن أبي عبد الله الصادق عليه‌السلام بسند صحيح، قال: «قال رسول الله: ألا إن الله عزّوجلّ قد حَرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وهي حرام بحرام الله الى يوم القيامة، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شجرها، ولا يختلى خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد»[2].

٦ ـ يحرم في الحرم كل ذنب، وتعظم حرمته عند الله حتى لو كان مثل شتم الخادم وضربه، وليس شأن الحرم شأن غيره من الأماكن، فإن كل ذنب حرام في أي مكان، وفي أي زمان، ولكن هذه الحرمة في الحرم أعظم وأبلغ وآكد.

وقد كان بعض الفقهاء والصالحين يتحرجون من الإقامة في جوار الحرم خشية أن يصدر منهم ذنب، فيعاقبهم الله تعالى عليه بالعذاب الأليم.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**

---

١ ـ وسائل الشيعة ٩: ١٧٢.

٢ ـ وسائل الشيعة ٩: ١٧٥.

وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

يذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ...**﴾: أن الذي يريد في البيت إلحاداً بظلم فالله تعالى يذيقه العذابَ الأليم.

والإلحاد هو العدول عن القصد والاعتدال.

وروى الطبرسي عن ابن عباس والضحاك ومجاهد وابن زيد أن الإلحاد هو استحلال الحرام وركوب الاثم[2].

وقد صحّت النصوص المعتبرة ان كل إثم إلحاد.

فقد جاء بسند معتبر عن الحلبي قال: «سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ**﴾ فقال: كل الظلم فيه الحاد حتى لو ضربت خادمك ظلماً خشيت أن يكون إلحاداً. فلذلك كان الفقهاء يكرهون سكنى مكة»[3].

وروى أبو الصباح الكناني قال: «سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن قوله عزّوجلّ: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾

---

١ ـ الحج: ٢٥.

٢ ـ مجمع البيان للطبرسي ٤: ٨١.

٣ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٤١.

فقال: كل ظلم يظلمه الرجل على نفسه بمكة من سرقة أو ظلم أحد، أو شيء من الظلم فإني أراه إلحاداً، ولذلك كان يتّقي أن يسكن الحرم»[1].

وعن رسول الله ﷺ: «جعل الله الحسنات في الحرم مضاعفة والسيئات مضاعفة»[2].

٧ ـ يحرم ملاحقة المجرم الذي أقدم خارج الحرم على جريمة تستوجب قصاصاً أو حدّاً أو تعزيراً ففر الى الحرم، احتراماً للحرم، وأمنه، ولكن يضيّق عليه، ويمنع من الشراء من الأسواق حتى يضطر للخروج من الحرم.

وقد استدل الفقهاء على ذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[3][4].

روى ثقة الإسلام الكليني بسند معتبر عن معاوية بن عمار قال: «سألت أبا عبد الله (الصادق)عليه السلام عن رجل قتل رجلا في الحل، ثم دخل الحرم، فقال: لا يقتل، ولا يطعم ولا يسقى ولا يباع حتى يخرج من الحرم، فيقام عليه الحدّ.

---

١ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٤١.

٢ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٣٦.

٣ ـ آل عمران: ٩٧

٤ ـ راجع «آيات الأحكام للجزائري» ٢: ٧.

قلت: فما تقول في رجل قتل في الحرم أو سرق؟ قال: يقام عليه الحدّ في الحرم صاغراً؛ لأنه لم ير للحرم حرمة، وقد قال الله عزّوجلّ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[1].

وروى أيضاً بسند معتبر عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾. قال: إذا أحدث العبد في غير الحرم جناية، ثم فَرَّ إلى الحرم لَم يسع لأحد أن يأخذه في الحرم، ولكن يمنع من السوق، ولا يبايع ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يكلّم، فإنه إذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤخذ، وإذا جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحد في الحرم، لأنه لم يرع للحرم حرمة»[2].

عن عبد الله بن سنان أنه سأل أبا عبد الله (الصادق)عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال: «من دخل الحرم مستجيراً به كان آمناً من سخط الله، ومن دخله من الوحش والطير كان آمناً من أن يهاج أو يؤذى، حتى يخرج من الحرم»[3].

---

١ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٣٧.

٢ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٣٧، ح٢.

٣ ـ وسائل الشيعة ٩: ٢٠٢.

والنصوص بهذا المعنى كثيرة.

فإذا كان لا يجوز ملاحقة المجرم في الحرم، ولا يجوز تنفير الصيد وتهييجه وأذاه فلا يجوز بشكل آكد وأبلغ ترويع المسلمين وإرعابهم في رحاب حرم الله، وتعظم حرمته عند الله.

روى محمد بن مسلم، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سألته عن قوله تعالى ﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾. قال: «يأمن فيه كل خائف مالم يكن عليه حدّ من حدود الله»[1].

والذي يقرأ اهتمام القرآن بأمْن هذا البيت لا يشك في أن للأمن دوراً أساسياً في رسالة البيت.

وقد كان (أمن البيت) من دعاء إبراهيم عليه السلام.

﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا**﴾[2].

﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾[3].

وبين الدعاءين فرق.

معنى الدعاء الأول يدعو إبراهيم عليه السلام أن يجعل الله الكعبة بلداً أمناً، ويبدو أن هذا الدعاء كان قبل أن يحل الناس بجوار الكعبة

١ ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٣٩.
٢ ـ البقرة: ١٢٦.
٣ ـ إبراهيم: ٣٥.

فيكون بلداً، فدعا الله تعالى أن يجعل البيت بلداً آمناً.

وفي الدعاء الثاني يدعو الله تعالى أن يجعل هذا البلد آمناً، ويبدو أن الدعاء كان بعد أن حلّ الناس بجوار البيت.

ومن اهتمام القرآن بأمن البيت: القَسَمُ بالبلد الأمين، يقول تعالى: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾[1].

ويمنّ الله تعالى على المؤمنين: أن جعل لهم الحرم آمناً، تجبى إليه الثمرات من كل حدب، ومكنهم منه...

﴿**أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[2].

فقد مَنَّ الله تعالى عليهم اذن، في هذه الآية مرتين.

مَكَّنَهم من حرمه، بعد أن كان بيد المشركين وتحت نفوذهم وهذا هو المنّ الأول.

وجعله آمناً في وسط دنيا صاخبة وهائجة بالحروب، ويتخطف الناس من حوله وهو المنّ الثاني.

يقول تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ**

١ ـ التين: ١ ـ ٣.
٢ ـ القصص: ٥٧.

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[1].

٨ ـ يحرم التمكين لولاية الظالمين على البيت الحرام، الذين يصدون الناس عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، ويعطلون دور هذا البيت، ويجب تمكين المتقين من ولاية البيت الذين يعدون للبيت ويطهرونه للطائفين والقائمين والركع السجود.

يقول تعالى: **﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾**[2].

وقد أوعد الله تعالى الذين كفروا، والذين يصدون الناس عن سبيله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

فانذر الذين يصدون عن المسجد الحرام، الذي جعله الله تعالى للناس عامة بالعذاب الأليم.

ويندّد القرآن بأولئك الظالمين الذين يصدون الناس عن

---

١ ـ العنكبوت: ٦٣.

٢ ـ الأنفال: ٣٤.

٣ ـ الحج: ٢٥.

المسجد الحرام: **﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾**[1] فيحرم على الناس تمكين الظالمين من ولاية البيت الحرام، ويجب عليهم تحرير هذا البيت من نفوذ الطاغوت وسلطانه، كما يجب عليهم تمكين المتقين منه؛ وقد وصف الله تعالى هذا البيت بـ(العتيق) فقال تعالى: **﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾**[3].

والعتيق من العتق، وهو التحرير. فهذا البيت حَرره الله تعالى من قبضة الظالمين مثل أبرهة، وعتاة قريش، ولم يجعل الله لأحد عليه سلطاناً، ولم يملكه أحداً من الناس حتى يكون بيتاً للناس جميعاً.

يقول الجزائري في آيات الأحكام في معنى العتيق: (إنه لا يملكه أحد من الناس).

ثم ذكر في معناه أيضاً: (أنه عُتق من الجبابرة، وحفظه منهم كأبرهة وغيره)[4].

---

١ ـ الفتح: ٢٥.

٢ ـ الحج: ٣٣.

٣ ـ الحج: ٢٩.

٤ ـ آيات الأحكام للجزائري ٢: ٢٦.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في جواب من سأل: لِمَ سمِّي البيت عتيقاً؟ قال: «هو بيتٌ حرٌ عتيق من الناس لم يملكه أَحد»[1].

---

١ ـ وسائل الشيعة ٣: ٣٤٧

الفهرس